الدرس (٠١٧) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلا نزال مع الأحاديث التي ساق النووي رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين في باب الصبر، وهي أحاديث عظيمة تدل على مكانة الصبر وعلو شأنه وعظيم ثوابه وأجره عند الله عز وجل.

قال المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

٣٧- وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**» مُتَفَقٌ عَلَيْهِ(١).

و «الوَصَبُ»: المرض.

هذا حديثٌ عظيم في بيان مقام الصَّبر، وأنَّ المسلم فيما يصيبه في هذه الحياة الدُّنيا من مرضٍ، أو تعبٍ، أو همٍّ، أو حزنٍ أو ألم أو غمٍّ، أو غير ذلك، حتَّى الشَّوكة يشاكها، ولو كانت شوكة صغيرة تصيبه في طرف قدمه، كفَّر الله بها من خطاياه.

وهذا يستفاد منه: أنَّ المصائب كفَّارات، يُكفِّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها من خطايا العبد، إذا أصابه النَّصب، أو الوصب: وهو المرض، أو الهمُّ، أو الحزن، أو الأذى، أو الغمُّ، أو غير ذلك؛ فكُلُّ ذلك فيه تكفير لخطاياه.

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

وكون المرض بنفسه كفَّارة هذا محلُّ إجماع والأدلَّة في ذلك واضحة وصريحة، وقد تقدم جزء كبير من الأدلَّة على ذلك.

لكن: هل في المرض ثواب؟

هذه مسألة فيها خلاف بين أهل العلم؛ فمن أهل العلم مَنْ قال: إنَّ المريض لا يُثاب مطلقًا على المرض وإنَّما يُثاب على الصَّبر الَّذِي يكون منه عند إصابته بالمرض، فالصَّبر على المرض هذا قدر زائد يُثاب عليه العبد، لأنَّ الصَّبر من عمل العبد الصَّالح.

ومن أهل العلم مَنْ يقول: إنَّ المرض يُثاب عليه مطلقًا، كما أنَّه كفَّارة.

ولشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحقيق نافع في هذه المسألة، أورده صاحب كتاب: «تسلية أهل المصائب» وهو كتاب قيِّمٌ في بابه. حيث ذكر هذه المسألة في فصل من فصول الكتاب، وذكر أقوال أهل العلم فيها.

وحاصل ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله أنَّ المصائب الَّتِي تصيب العبد على **نوعين:**

نوع منها: مصائب أصيب بها العبد تكون متولِّدة عن طاعة قام بها؛ كأن يكون ذهب في جهاد فأصيب، أو كان صائمًا فأصيب في صيامه بشدَّةٍ أو بجوعٍ أو نحو ذلك، أو كان قائمًا يُصَلِّي فأُصيب بألمٍ أو بوجعٍ من قيامه، أو نحو ذلك من المصائب الَّتِي هي متولِّدة عن طاعات، فالمصائب المتولِّدة عن الطَّاعات يُثاب عليها، وإذا صبر أُثيب ثوابًا آخر على صبره، لكن المصيبة بحدِّ ذاتها يُثاب عليها العبد إذا كانت متولِّدة عن طاعة؛ لأنَّ ما تولَّد عن طاعة فإنَّه يأخذ حكمها من حيث الثَّواب والأجر.

أمَّا إن لم تكن المصيبة متولِّدة عن طاعة فإنَّه لا يُثاب عليها، فإن صبر فإنَّه يُثاب على الصَّبر، وإلَّا تبقى مصيبته كفَّارة له كما في الأحاديث الكثيرة في هذا الباب.

ومنها: قوله ﷺ في الحديث المُتَقَدِّم: «**مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**».

فكُلُّ ما تولَّد عن عمله الصَّالح من المصائب أثيب عليه بخلاف المصائب الَّتِي لم تتولَّد عن عمله؛ فإنَّها مكفِّرات لا مثيبات.

فهي في نفسها تُكَفِّر خطاياه ويُؤجر على الصَّبر عليها؛ ففيها له مغفرة من جهة ما تُكفره من خطاياه، وله فيها رحمة من جهة ما يؤجر على الصَّبر عليها لا سيَّما إذا اقترن بها توبة وإنابة إلى الله وتوكُّل عليه وتوحيد له وإخلاص؛ فإنَّها تكون من أعظم النِّعم ومصيبة يُقْبِل بها العبد على الله خير له من نعمة تُنْسِيه ذكر الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٣٨- (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُوْعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قَالَ: «**أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»، قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**» مُتَفَقٌ عَلَيْهِ(٢)).

وَ«**الوَعْكُ**»: مَغْثُ الحُمَّى، وَقِيلَ: الحُمَّى.

وهذا الحديث نظير الحديث الَّذِي قبله في بيان أنَّ من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعبده: أنَّه إذا أصابه المرض، فإنَّه يكون كفَّارة له، وكُلَّما اشتدَّ المرض؛ كان ذلك أعظم في التَّكفير، وحطِّ الذُّنوب، ومغفرة السَّيِّئات.

فعلى المسلم في هذا المقام، مقام الابتلاء بالمرض، أو الفقر، أو النَّصَب، أو الهمِّ، أو غير ذلك، أن يتحلَّى بالصَّبر محتسبًا أجر ذلك وثوابه، وما فيه من تكفير سيِّئاته.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٣٩- (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ**» رواه البخاريُّ(٣).

وَضَبَطُوا «يُصِبْ» بفتح الصَّاد وكسرها).

---

(٢) رواه البخاريُّ (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٦٤٥).

معنى هذا الحديث: أنَّ الله يقدِّر على عبده شيئًا من المصائب في هذه الحياة، من مرضٍ أو فقرٍ أو نحو ذلك؛ لتكون كفَّاراتٍ له، وممحِّصاتٍ؛ لأنَّ المصائب كفَّارات، ولا شكَّ أنَّ من الخير للعبد أن تُكفَّر خطيئته في الدُّنيا، وأن يسلم من عذابها يوم القيامة، والمصيبة كفَّارة للعبد، وكون المرء يصاب بالمصيبة في الدُّنيا فتُكفِّر خطيئته، أولى من أن يلقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتلك الخطيئة، فيكون عرضةً للعقاب.

والخطيئة تُكفَّر بثلاث: بالمصائب الَّتِي يُبتلى بها العبد، وبالحسنات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، وبالتَّوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتَّوبة تهدم ما كان قبلها.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٤٠- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٤).

النَّهي عن تمنِّي الموت في هذا الحديث، هو نهيٌ عن تمنِّيه عند الضُّرِّ الَّذِي يصيب العبد، من مرضٍ شديدٍ، أو فقرٍ شديد، أو مصائب متتابعة؛ لأنَّ هذا يخالف الصَّبر، ويدلُّ على الجزع، والعبد مطلوبٌ منه أن يكون في الضَّرَّاء صابرًا، حتَّى يفوز بثواب الصَّابرين، لا أن يقابلها بالجزع، وتمنِّي الموت، بل عليه أن يتحلَّى بالصَّبر، لتكون هذه المصائب كفَّاراتٍ له.

ثمَّ في هذا المقام.. مقام اشتداد المصاب على العبد أن يُفوِّض أمره إلى الله، لا يتمنى الموت ولا يسأل الله عز وجل أن يميته، وإنَّما يفوِّض أمره إلى الله بهذه الدَّعوة العظيمة، الَّتِي أرشد النَّبِيُّ ﷺ أن تُقال في مثل هذا المقام: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي**».

قال المصنف رحمه الله تعالى:

---

(٤) رواه البخاريُّ (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

٤١- (وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٥)).

وفي رواية: «وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينا مِنَ المُشْرِكِينَ شدَّةً».

هذا الحديث جمع فيه النَّبِيُّ ﷺ بين الحثِّ على الصَّبر على أذى أعداء الدِّين، مع الأخذ بأسباب النَّصر والتَّمكين لدين الله، والدَّعوة إليه.

وبشَّر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ متمٌّ دينه، بحيث أنَّ الرَّاكب من صنعاء إلى حضرموت يسير لا يخاف إلَّا الله والذِّئب على غنمه، أي: من استتباب الأمن في الجزيرة، وهذا من أمارات النُّبُوَّة، وقد وقع الأمر طبقًا لما أخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٤٢- (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رَسُولُ اللهِ نَاسًا فِي القِسْمَةِ، فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى نَاسًا مِنْ أَشْرافِ الْعَرَبِ وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي القِسْمَةِ. فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ اللهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ ثُمَّ قَالَ: «**فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!**» ثُمَّ قَالَ: «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»، فَقُلْتُ: لَا جَرَمَ لَا أَرْفَعُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا حَدِيثًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٦)).

---

(٥) رواه البخاريُّ (٣٦١٢)، (٣٨٥٢).

(٦) رواه البخاريُّ (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

وَقَوْلُهُ: «كالصِّرْفِ» هُوَ بِكَسْرِ الصَّادِ المُهْمَلَةِ: وَهُوَ صِبْغٌ أحْمَر.

في هذا الحديث صبر النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، واستذكاره واستحضاره لصبر الأنبياء من قبله، وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا له في القرآن: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أولي العزم من الرُّسل، وها هو نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول في هذا المقام، مقام الصَّبر: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ».

وهذا أيضًا يفيد: أن تذكُّر الإنسان لمقامات الصَّابرين، يعينه على الصَّبر والتَّحلِّي به.

وقول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (لَا جَرَمَ! لَا أَرْفَعُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا حَدِيثًا)، قال ذلك بسبب ما رآه من تأثُّر النَّبِيِّ ﷺ من تلك المقالة الَّتِي فيها طعن في قصد النَّبِيِّ ﷺ. وفي رواية: «فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَغَضِبَ حَتَّى وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَخْبَرْتُهُ».

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٤٣- (وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٧)، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ»).

هذا الحديث أيضًا نظير ما سبق في أنَّ المصائب كفَّارات، وأنَّ على العبد أن يصبر على المصائب، حتَّى يفوز بثواب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأيضًا أنَّ إمهال الله للعاصين هو استدراجٌ لهم، فالعقوبة تؤخَّر لحكمة، فعلى العبد أن يحذر إذا كان على ذنوب، وفي الوقت نفسه يزيد مالًا وصحَّة ونحو ذلك، فإنَّ هذا من قبيل الاستدراج.

بينما إذا كان الإنسان على بعض الذُّنوب والمعاصي، ثمَّ أصيب بمصاب، وكان هذا بوابةً لتوبته وهدايته، فهذا ولا شكَّ من إرادة الخير بالعبد، يبتليه بالمصيبة، ويُوَفِّقه للإنابة والرُّجوع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتكون المصائب كفَّارات له.

---

(٧) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٩٦)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

وفيها بشارة للمؤمن إذا ابتلي بالمصيبة فلا يظنَّ أنَّ الله سبحانه يبغضه، بل قد يكون هذا من علامة محبَّة الله للعبد أن يبتليه سبحانه بالمصائب فإذا رضي الإنسان وصبر واحتسب فله الرِّضى وإن سخط فله السُّخط.

وحظُّ الإنسان من المصيبة هو ما تُحدث له من أثر، فمَن رَضِيَ فله الرِّضا، ومَنْ سَخط فله السُّخط، مَنْ أحدثت له مصيبته سخطًا وكفرًا؛ كُتب في ديوان الهالكين. ومن أحدثت له جزعًا وشكايةً وتفريطًا؛ كُتب في ديوان المُفَرِّطين، ومَنْ أحدثت له تسخُّطًا على الله، وجرأةً على حكمة الله، وتبَرُّمًا مِنْ قضاء الله وقدره؛ كُتب في ديوان الخاسرين. ومَنْ أحدثت له رضا؛ كُتب في ديوان الرَّاضين. ومن أحدثت له صبرًا؛ كُتب في ديوان الصَّابرين. ومَنْ أحدثت له شكرًا؛ كُتب في ديوان الحامدين الشَّاكرين.

ولهذا لا بدَّ أن يعلمَ المصابُ أنَّ الَّذِي ابتلاه بمصيبته هو أحكمُ الحاكمين وأرحمُ الراحمين، وأنَّه سبحانه لَم يُرسل بلاءَه عليه ليهلكَه ولا ليعذِّبَه، وإنَّما ابتلاه ليمتحنَ صبرَه ورضاه وإيمانَه، وليسمع تَضرُّعَه وابتهالَه ودعاءَه، وليَرَاهُ طريحًا ببابه، لائذًا بجَنَابه، مكسورَ القلب بين يديه، رافعًا يدي الضَّرَاعة إليه، يشكو بَثَّه وحُزنَه إليه؛ فينالَ بذلك عظيمَ موعود الله وجزيلَ عطائه ووافرَ آلائه ونعمائه، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، فما أوسَعَه من فضل! وما أكرمَه مِنْ عطاء!

ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا وأن يوفقنا لكل خير؛ إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل. وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.